أوراق لها تاريخ

حبيب صادق... مناضلاً في الفكر والسياسة والثقافة

إنه سيرةٌ ذاتيةٌ على شكل حوار أجراه طانيوس دعيبس مع أحد رموز الحركة الثقافية (كما السياسية) في لبنان. الكتاب الذي صدر أخيراً عن «دار الفارابي»، ينقسم إلى مرحلتَي الجنوب وبيروت ويتوقف عند أبرز محطات حياته التعليمية والصحافية، والسياسية والثقافية....

عبد الرحمن جاسم

هو ليس حواراً عادياً. إنه سيرةٌ ذاتيةٌ على شكل حوار لأحد رموز الحركة الثقافية (كما السياسية) في لبنان حبيب صادق. لذلك فإن اختصار حياته في كتاب أمرٌ شائك وإن كان حواراً «طويلاً» يحمل عنوان «حوار الأيام» (دار الفارابي). بدأ المشروع عام 2004، بمحاولةٍ دؤوبة من مجري الحوار طانيوس دعيبس لتسجيل فصول من سيرة صادق الذاتية، ضمن مبادرة (أشمل) تدعى «الذاكرة المحكية للبنان» أطلقتها «مؤسسة المحفوظات الوطنية» لتسجيل ذاكرة الوطن على لسان أشخاص عاشوا حياته العامة بكل اتجاهاتها السياسية، والاجتماعية وسواها. تأخر إصدار هذا العمل أكثر من عشر سنوات.

ربما كان ذلك ـ بحسب صادق ـ يعود إلى أنهّ كان يعتبر «أني لست من أولئك المؤهلين لتدوين سِيَر حياتهم في هذه الدنيا». لكنه غيّر رأيه لأنه لا يريد أن «أثقل على ورثتي فأحملهم عبء معالجة أمري بشأن ملف المذكّرات»، فضلاً عن تأثره بموقف كثيرين من المحبين والأصدقاء الذين آثروا أن ينشر ما جمعه في ملف الذاكرة هذا. يقسم الكتاب إلى مرحلتين أصليتين: مرحلة الجنوب ومرحلة بيروت. يبدأ من فترة الجنوب التي يقسمها إلى ثلاث مراحل. تتبع المرحلة الأولى طفولته في قريته الخيام، وانتقاله إلى النبطية (حيث ترعرع)، مروراً بتعريف عن الأجواء هناك وعلاقته بوالده الشيخ عبد الحسين صادق وتأثره الكبير به، رغم رحيله المبكر وهو لا يزال حدثاً في الصف الابتدائي الخامس (كان والده رجل دين بارزاً وشاعراً وخطيباً، احتلّ مكانةً سياسية بارزة، فكان الناطق باسم أهل جبل عامل حين قابلوا وفد الأمير فيصل في 1919). نقرأ أيضاً عن علاقته بوالدته منّا راضي وإخوته، وصولاً إلى ذكرياته في قريته والقرى المجاورة. بعد ذلك، يكمل الحوار صعوداً زمنياً باتجاه مراحل الدراسة التي تمتاز بالكثير من القصص والذكريات التي تعبّد الطريق الذي سيسلكه الرجل كي يصبح ما هو عليه.

أما مرحلة الجنوب الأخيرة، فهي فترة ما بعد التخرّج، حين أصبح مدرّساً في المدرسة الرسمية متحدثاً عن مراحل تاريخية من تاريخ لبنان المعروفة كانتخاب كميل شمعون واغتيال رياض الصلح والتظاهرات التي أعقبت اغتياله وكيف شارك بها.

في «مرحلة بيروت»، ينهج الحوار نحو حياة صادق في العاصمة. انتقل من قريته الوادعة إلى مدينة مختلفةٍ كل الاختلاف، ليسكن في أحد أحيائها:

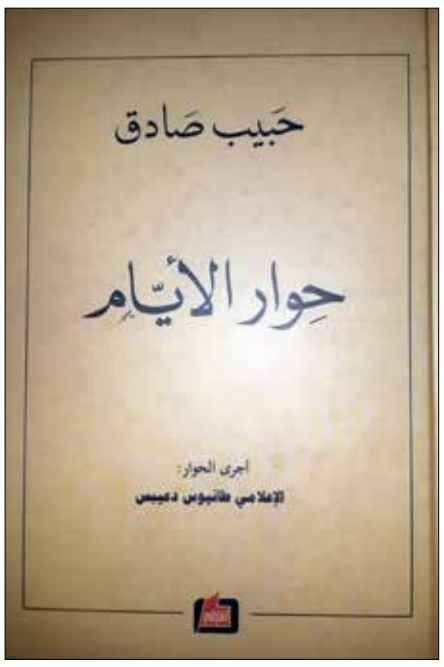

تعرض لمحاولة اغتيال في 9 أيلول (سبتمبر) 1977

المصيطبة. يشرح علاقته بالمدارس التي بدأ التدريس فيها حتى انتقل «قسرياً» إلى منطقة جبل لبنان للتعليم هناك في مدرسة الزلقا الابتدائية، وصولاً إلى تجربته في التعليم في سجنَي الرمل والقلعة. كانت أجواء بيروت جديدةً على الشاب القادم من الريف الجنوبي، لكنها أيضاً كانت محفزاً أساسياً له على الأنشطة الثقافية/ الاجتماعية.

واظب على حضور ندوات «الندوة اللبنانية»، و«النادي الثقافي العربي»، وأنشطة ثقافية في «المركز الثقافي السوفياتي». اهتم أيضاً بالكتابة، فكانت أولى تجاربه البيروتية الصحافية في جريدة «الأخبار» (كان مالكها سهيل يموت آنذاك ولم تستمر إلا ثلاثة أشهر) كاتباً ومحرراً (ومشرفاً إدارياً عليها)، كما كان يكتب باسم مستعار هو «أبو جلا» حرصاً على وظيفته الرسمية. كذلك كانت «الفلك العربي» تخصه بمقال؛ إلا أن أول ما نشره من قصائد كان في مجلتي «الألواح» و«الثقافة الوطنية».

يتحدث صادق في تلك المرحلة عن علاقته بكثير من الأدباء والمثقفين القادمين من الجنوب كإملي نصر الله ومحمد دكروب وعبد اللطيف شرارة وسلام الراسي؛ وعلاقته الوطيدة مع الشيخ واللغوي عبد الله العلايلي.

بعد ذلك، دخل مراحل مختلفة؛ متشعباً في علاقاته الإنسانية والاجتماعية من خلال أنشطة سياسية واجتماعية وثقافية. كتب للإذاعة اللبنانية برامج ومسلسلات مثل «في مثل هذا اليوم»، «العدالة والحياة»، و«الفصل الأخير»، وساهم في إنشاء «مستشفى الفنار» كأول مستشفى في جنوب لبنان يعالج الأمراض النفسية والعصبية (تم بناؤه أثناء عمله رئيساً لدائرة المحاسبة في وزارة الصحة العامة عام 1964).

يحكي صادق عن انتسابه إلى «المجلس الثقافي للبنان الجنوبي» (عام 1964، أي سنة تأسيسه)، حين ارتبط به «ارتباطاً عضوياً كانني عثرت على ضالّتي في قيامه». عاد بعدها للعروج على أول انتخاباتٍ شارك فيها (وخسرها) مرشحاً للمجلس النيابي (1968) بعيداً عن «البكوات» الذين كان نفوذهم قوياً للغاية. شارك صادق في انتخابات المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى ليفوز بخمسة مقاعد (عام 1975 ضمن لائحة «التضامن الوطني»). أما في مرحلة بيروت الخامسة والأخيرة، فيورد محاولة الاغتيال التي تعرض لها صادق في 9 أيلول 1977 وسنوات «منفاه» الاختياري في بغداد، ثم باريس. يمر على مرحلة الغزو الصهيوني للبنان عام 1982 التي شهدها صادق في بيروت، لينتهي بمرحلة الانتخابات النيابية عام 1992 مرشحاً على لائحة «حركة أمل» قبل أن يقع الخلاف بينهما في المجلس النيابي.

كتابٌ لا يمكن لمقالٍ واحد أن يفيَه حقه، فالتجارب التي مرّ بها صاحبها تجعل من الصعوبة حصرها، لذلك تجدر الإشارة إلى أنه كتاب يقرأ وأكثر من مرة.

شعر

غسان مطر: أيها الجرح المغنّي

في مجموعته الجديدة «أحزان مشردة» (الحركة الثقافية في لبنان)، لا ينظر الى هذا الوجود بعين الشاعر بل بعيني الفيلسوف والانسان. أحزان الأمة العربية جسّدها في قصائده. حزن ينتقل من حال الى حال من دون أن يكفّ عن أن يكون هو ذاته

ياسين رفاعية

في ظاهرة لم يسبق حدوثها أنّ احتفالاً أُقيم في أكبر صالة من مبنى «قصر الأونيسكو» في بيروت ضم خمسة شعراء، كل واحد منهم اتخذ له زاوية للتوقيع على كتبه الشعرية، وهم: بلال شرارة، الامير طارق نصر الدين، الشاعر السوري عبد القادر الحصني، باسم عباس، والشاعر القومي غسان مطر، الذين نحن بصدده الآن، ذلك أن معظم أعمال هذا الشاعر هو الوطن، وهو الوحدة، التي تكون مصدر قوة ازاء هذا التشرذم الحاصل في منطقتنا العربية. ليس هذا فقط، فإن ما ينعكس من الحياة العامة، ينعكس ايضاً على احاسيس هذا الشاعر الذي يرى بعينه الثاقبة أنّ لا صحوة في المدى المنظور. عنوان مجموعته الجديدة هو «أحزان مشردة» (الحركة الثقافية في لبنان) ومن منا ليس حزيناً على اوضاع الأمة التي تمتهن على مستوى العالم كله، وتؤجّجها «اسرائيل عدونا التقليدي»؟ هذه الاحزان جسدها مطر (المحامي والنائب السابق) في قصائده من كل جانب، ولا من أمل بأنّ فجراً سيشرق على هذه الامة التعسة. هو حزن ينتقل من حال الى حال من دون أن يكفّ عن أن يكون هو ذاته، وذلك بفضل الاحساس العميق للشاعر وهو لا ينظر الى هذا الوجود نظرة الشاعر بل الفيلسوف والانسان. انه بفضل القصيدة يوحّد اجزاء الوقت المتفرقة المتمايزة، تقضي على تباعدها وتنافرها، وتعطي كياناً للعدم. من هنا المغزى العميق لعبارة ت. س. اليوت «في بدايتي نهايتي»، التي كان يكررها مراراً في حياته. غسان مطر ـ من حيث يدري أو لا يدري ـ هو الآخر بدايته نهايته. لا يتفاءل الشاعر وهو يري بأم العين أمة بكاملها تنهار وتندثر.

يجد أننا في احتضار بطيء. ليس الموت الحقيقي سوى بعث قومي وولادة جديدة، فالحياة موت والموت حياة. ليس في حياة الشاعر من بقعة ضوء وقد توالت الهزائم علينا من كل حدب وصوب. ليس هناك شعور بالرفاهية والاكتفاء واحترام الناس في هذا الوطن. اننا في قلب حلقة الخطر. ازاءه، يجد الشاعر أن المتع الحسية العابرة ليست هدفه، بل الاشراقات الروحية الخاطفة التي تتجاوز السعادة الى ما وراء ذاتها، الى عالم آخر، يشير ويلمح ويقود اليه، ويهون علينا عندما ندرك ما ينطوي عليه من ابعاد فلسفية ستخرج منها اكثر

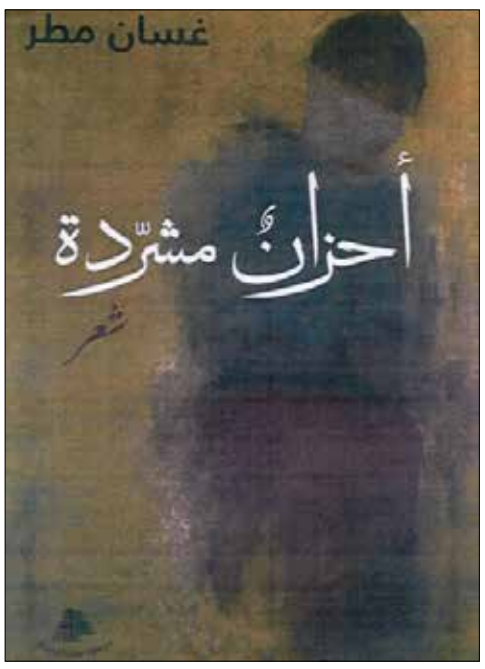

المتع الحسية العابرة ليست هدفه، بل الاشراقات الروحية الخاطفة

ما تعرضه علينا من قبل. نكهة المطلق ونسيم الفردوس، فنصفح عن النقصان في الحياة واساءاتها. ومن هذا الشعر الذي أجاد غسان مطر تجسيده، يكشف لنا عيوبنا وخطايانا. ليس من شيء نافر، لأن هذا النور الإلهي في القصيدة يشرق علينا في النهاية، وننظر بتعاطف وحنان نحو الناس ويتراءى لنا بعض بصيص من الامل، فالشاعر ليس متشائماً الى آخر الحدود.

بصيص من الامل تدعمه القصيدة الجيدة، لا القصيدة المتحايلة على الابداع. غسان مطر ليس متأرجحاً بين الوجود والعدم، بل هو في مصلحة الوطن ككل، يغمرنا بالمحبة الشاملة، لا الجزئية المتعلقة بالشخص. محبة متجاوزة مصلحة الفرد نحو مصلحة الوطن ثم الكون، منزهة عن الشهوة التي تتسع للعالم بأسره والمخلوقات جميعاً، وكل البشر من دون استثناء. بالتأكيد، ليس غسان مطر مغامراً يحاول أن يجعل من نفسه غريباً عن الشعر، بل هو منتم انتماء كاملاً للقصيدة، ومحبة الوطن والاهل والامة هي المحبة المستوحاة من الله. لقد عانى غسان مطر من الاضطرابات السياسية، والصراعات الاجتماعية، والمشاكل والمساعي المختلفة التي استقطبت اهتمام الناس، فتجدها هراء وقبض ريح، لكن الشاعر لا يزدريها، فكل شيء ـ في المحصلة ـ حسن. إنّ الشاعر ـ بسبب رفعة أخلاقه ـ لا يشتري البشاعات والآثام، بل يريد أن نطهر قلوبنا كي نستعيد نعمة الوطن. وهذا الجوع لا نستطيع اشباعه سوى بالغذاء الروحي، بينما يعجز خبز الارض عن ذلك. ليس شعر غسان مطر على ضلال من الواقع، بل على العكس. انه في صميم الواقع، يحاول كفرد وحركة مجتمع أن يعمم مساره نحو الأحسن إن لم يكن نحو الثورة. لذلك نراه يدعونا الى التضحية. ليس من سواها قادرة على التغيير من أجل البقاء. وهو ينشد لمجزرة صبرا وشاتيلا السيئة الذكر عام 1982: «كان ما كانَ/ وهبّ الموت امواجاً/ وايلول هدير صاخب في الروح/ والبحر دم/ والطفل يحبو صوب صدر الأم/ مثقوباً بآلاف الشظايا،/ وعلى الشرفة «شارون»/ وفي كفه كأس الدم». وهو في محاولته استعادة كبريائه من ظل الهزيمة، انما يستدرك أن لا بد بين كل شعوب العالم من يتعاطف معنا، فليس صحيحاً ان كل أمم الارض مع الصهيانة سارقي الحق باستثمار الخديعة: «أشكو لمنْ/ هل كان هذا مطلع المؤال/ أم أنني تخيلت الغناء/ لكيّ أجاهر في الغناء/ ومن المغني النادب الباكي/ لأسأل جرحه السري/ هل وطناً دفنتَ كما دفنتُ؟/ وكيف يسعفك البكاء؟/ تشكو،/ وتعرف أن اهلك كلهم ذبحوا... تشكو لمن/ والأرض جرح/ أيها الجرح المغني/ والسماء اجتاحها الوثني/ وانكسرت مفاتيح السماء/ الله اكبر/ كيف ان (الله اكبر) تستباح/ وكيف تقطر من طهارتها الدماء».